المعجم السِّياسيُّ ـ ٨ ـ

وحدَّثني صاحبُ سرٍّ (م) باشا قال : كنَّا في سنة ١٩٢٠ ، وهي بنت سنة ١٩١٩[1] ؛ وقد اجتمعت الأمَّةُ على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلِّمُها ، فجعلت السُّكوتَ ثورةً ، وأعلن الشَّعبُ : أنَّ كلمتَه في لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النَّبي بما يُوحَى إليه ، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولَها ، ولا أن يقولَ أُوحي إليَّ . وأبى اللورد ملنر أن يصدِّقَ أنَّ للمصريين إجماعاً يُعْتَدُّ به ، وأنَّهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً ، فَرَسَخُوا فيها ، وأنَّهم أصبحوا مع الإنجليزِ كالإنجليزِ الذين يقولون عن أنفسهم في مَثَلِهم السَّائر : ينبغي أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه : أنَّ هذه الأحزابَ المصريَّةَ لا يتَّفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه ، وهو الطَّمعُ في مناصب الحكم ؛ واستخرج من ذلك : أنَّ المصريَّ والمصريَّ كشِقَّي المِقراض : لا يتحرَّكان في عملٍ إلا على تمزيق شيءٍ بينهما ؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيءٌ .

وذهب الرَّجلُ يَتَظَنَّى ، ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ له الظَّنُّ ، وقد حسب : أنَّ إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ في المصريِّين ما يقولُ الله في خَلقه ، كما ورد في الأثر : « إنما يتقلَّبون في قَبضتي » وكما تقول اليومَ لأهل فلسطين من العرب : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩] . وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاكل السِّياسة ، دَخَّالاً فيها ، دَاهيةً من دُهاة القوم ، له في قلبه عينان ، وأذنان غيرَ ما في وجهه كحذَّاق السِّياسيين ؛ وهو يعرف : أنَّ سياسةَ قومه لا تدخلُ في شيءٍ إلا دخولَ الإبرة بخيطها في الثَّوب ، إن خرجت هي تركت الخيطَ وقد جَمَعَ ، وشدَّ . . . فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريِّين في إجماعهم على الاستقلال ، وقدَّر : أنَّه واجدٌ من الفَلاحين عوناً له ، ومادةً لمكرِه السِّياسيِّ ، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة ، ينزلون من الشَّعب منزلةَ اليد الَّتي تُمْسِكُ القيدَ من الرِّجْلِ التي فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة

(١) سنة الثورة المصرية ، وقد مرَّ وصفُها في مقالة : « الأخلاق المحاربة » . (ع) .

السِّياسة ، ويقولون الوطن ، وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشَّعبَ كالسُّلَّم ينتصبُ قائماً بأيديهم ؛ ليحملَ أرجلَهم الصَّاعدةَ عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمَّةَ كلَّها قد حَذِرَت منه ، وتيقَّظت له ، حتَّى نصحه رشدي باشا بأنَّه لن يجدَ في مصر هرَّةً تفاوضه ؛ ولكنَّه كان مستيقناً أن أُذُنَ السِّياسة الإنجليزيَّة (كالراديو) لصوتين : صوت الدَّنانير ، وصوتِ الجماهير ، فمرَّ في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانْصَفَقَ عنه النَّاسُ ، وأهملوه ، وكان يسير في دائرة الصَّمت الَّتي مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأُ حتَّى انتهى ، وما زال يبدأ . . . وساح في البلاد سياحةً طويلةً ، وكأنَّه لم يسافر إلا من شَفَة أبي الهول السُّفلى إلى شفته العُليا .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَلٍ : لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غيرَ أنَّه رجلٌ بمقدار الرَّجلِ الذي يخالف أمَّةً كاملة تكاد تحسبُه مطوِيّاً على زوبعة ، وترى له قوَّتين ، تُحِسُّ من أثرهما الرَّهبةَ ، والإعجاب ، وإذا تأمَّلتَه ؛ قلتَ : إن اللُّطفَ ، والظَّرْفَ أضعفُ شمائله ، وإنَّ الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألني : كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا ! إنَّه كالضَّرورة : ما يتمنَّاها أحدٌ ، ولكنَّها تجيء .

فضحك الباشا ، وقال : يا ليت لنا نحن الشَّرقيين كلَّ يوم ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنَّه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائق السِّياسيَّة . وهي : أنَّ الشَّعبَ الذي يُصِرُّ ، ولا يزال يُصِرُّ ، يجعل الإغراءَ لا يُغرِي ، والخوفَ لا يخيف .

ويا ليتَ الأممَ الشَّرقيةَ تتعلَّم هذا الصَّمتَ السياسيَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعماريَّة أحياناً ؛ فإنَّ صمْتَ الأمَّة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه : أنَّ قدرةَ الأمَّة هي المتكلمةُ كلامَها بذا الصَّمت ، تعلن للعالم : أنَّ الواجبَ الشَّعبيَّ قد وضعَ قُفْلَه على كلِّ فمٍ .

وقد فسر اللُّورد هذا السُّكوتَ بتفسيره السِّياسيِّ ، فأدرك منه : أنَّ في الشَّعب

أنَفَةً ، وحميَّةً ، وقوَّة ، وأنَّ حسابَ الضَّميرِ الوطنيِّ أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهيِّ للنُّفوس المؤمنة : كلاهما مُستعلِنٌ يُخافُ ، وَيُتَّقى ، وكلاهما كلمةٌ محرَّمة .

أيَّة معجزةٍ هذه الَّتي جعلت كلمةَ الأجنبي تتَّخذُ في أذهان أمَّةٍ كاملةٍ شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرَّفض ، وأصبح كلُّ فردٍ يعرف محلَّه من الكلِّ ، وخضعت الطَّبائعُ بجملتها لقانون العزَّة القوميَّة ؛ الَّذي يُلزِمها ألا تخضعَ للأجنبيِّ ؟

إنَّ الأممَ بعضُ مسائلَ نفسيَّةٍ كهذه المسألة ؛ فلو أنَّ لنا خمسةَ دروسٍ سياسيَّةٍ مختلفةٍ كدرس (ملنر) ؛ لكانت لنا في الإيمان الوطنيِّ كالصَّلواتِ الخمس .

والآن تعلَّمت الأمَّةُ : أنَّ الشَّعب العزيزَ هو الذي ينظر في فَضِّ مشاكِله إلى الحلِّ ، وإلى طريقة الحلِّ أيضاً ، وقد كان (ملنر) هو أوَّل أساتذَتِنا في تعليمنا الطَّريقة .

وهذا الدَّرسُ يجب أن يكون درساً للشَّرق كلِّه ، فإنَّ السياسة الاستعماريةَ قائمةٌ فيه على خداع الطَّريقة في حلِّ مشاكله ، فيحلُّونها ، ويَعْقِدونها في نصٍّ واحدٍ ؛ ويُثبت الكلامُ الذي يتَّفقون عليه : أنَّ المرادَ منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أنَّ المراد كان زوالَ المقاوَمة .

وفي السِّياسة الأوربيَّة موافقاتٌ دميمةٌ كالنِّساء المشوَّهات ، فإذا عرضوا واحدةً منها على من يريدون أن يزوِّجوه . . . فأباها ، وفتح لها عينيه بكلِّ ما فيهما من قوَّة الإبصار ؛ أعفَوه منها ، وقالوا له : سنأتيك بالجميلة ، ثمَّ يذهبون بها إلى معهد التَّجميل اللُّغوي ، فيصقلونها ، ويصبغونها ، ويضعون لها أحمرَ السِّياسة ، وأبيضَها ، ثمَّ يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدَّميمةُ غيرَ دميمةٍ ، ولكن ما به رَجَعَ غيرُ الأعمى كالأعمى .

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في اختراع الألفاظ ، حتَّى لتكون شدةُ الوضوح في عبارة ، هي بعينها الطَّريقةَ لإخفاء الغموض في عبارةٍ أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ منتفخةٍ تُحسَبُ جَزْلةً بادنةً ، قد ملأها معناها ، وهي في السِّياسة ألفاظٌ حُبالى ، تَستكمِلُ حملَها مدَّةً ، ثم تلد .

ولهم من بعض الكلمات السِّياسية ، كما لهم من بعض الرِّجال السِّياسيين ؛

فيكون الرَّجلُ من دُهاتهم رجلاً كالنَّاس ، وهو عندهم مِسْمَارٌ دَقُّوه في أرض كذا ، أو مملكة كذا ، ويكون اللَّفظُ لفظاً كاللُّغة ، وهو مسمارٌ دقُّوه في وثيقةٍ ، أو معاهدةٍ .

ثمَّ ضحك الباشا ، وقال : إنَّ أرضَنا تُخرج القطن ، وسياستَنا تخرج ألفاظاً كالقطن : لا توضع في المِغْزَل إلا مَدَّت ، وتحولت . وإذا ذهبنا نخالفهم في التَّأويل ، والتَّفسير ، لم نجد عندنا المعجمَ السِّياسي ؛ الذي يُملي النَّصَّ . أتدري يا بني ! ما هو المعجم السِّياسيُّ ؟

أَما إنَّه لو كان كتاباً يتألَّفُ من مليون كلمةٍ ؛ لذهبت كلُّها عبثاً ، وباطلاً ، وهُراء[1] ، ولكنَّه ذلك المعجمُ الحيُّ ، ذلك المعجمُ الَّذي يتألَّف من مليون جنديٍّ .

* * *

(١) « هراء » : هو فاسدُ القول ، وسخيفه .